الصباغة وصناعة الاصباغ

(تابع ما قبلهُ)

مما تقدم نرون كيف ان الكيمياء الحديثة العلمية توصلت في خمسين سنة الى تغيير عظيم في معالم فن الصباغة وكيف قطعت شوطاً بعيداً قضت به على الاصباغ النباتية والحيوانية بما فيها صبغ الفوة كما قدمنا ولم يبقَ بعد هذه إلاَّ النيلة النباتية ثابتة وحافظة لمقامها تزرع في البلدان كثيرة وتباع بمقادير وافرة لما امتازت به من الطرق الخاصة في الاستعمال ولما لها من ثبات اللون وزهائهِ فعدها محبو القديم اي المحافظون هبة الطبيعة التي لا تقاوم. غير ان العشر السنين الاخيرة من القرن الماضي اي التاسع عشر وهي السنون التي اشتهرت بالسلم والرخاء واتجاه اغراض الناس فيها الى تحسين الصناعات وتسهيل الانتاج اشتهرت ايضاً بتفوق المباحث الكيماوية فانشئت المصانع الكيماوية العظيمة وبلغ الانسان معها التحكم في عناصر الهواء . ان في هذه الفترة من التاريخ — والتي نسأل الله ان يعيدها الى العالم ايضاً — تمَّ للكيمياء ثلاثة اكتشافات عظيمة في فن الاصباغ وهي

اولاً اكتشاف النيلة الاصطناعية وصنعها في الباديشة انيلين وصودا فابريك سنة ١٨٩٧ ومعمل مايستر لوتيوس وبروتنج اللذين اصطنعا الالبزارين كما قدمنا

ثانياً اكتشاف فيدال للاصباغ الكبريتية سنة ١٨٩٣

ثالثاً الاصباغ التي تستعمل اليوم على طريقة النيلة وهي الانداترين وهذه ايضاً من صنع الباديشة انيلين وصودا فابريك ومايستر لوتيوس وبروتنج

فلنتكلم الآن على كل منها على حدة لنظهر المقام الذي بلغتهُ في عالم الصباغة والاصباغ

قلت ان اكتشاف الالبزارين قضى على الفوَّة واقول الآن انهُ باكتشاف النيلة واصطناعها ونشرها قضي على آخر صبغ من مملكة النبات فكان لحل هذه العقدة عند الباديشة انيلين وصودا فابريك ضجة عظيمة في العالم الاصطناعي لم يسبق لها مثيل نظراً لمفاجأته بهذا الاختراع المدهش الذي استقبلهُ العالم بين الانكار والتصديق

لم يتيسر للباديشة انيلين وصودا فابريك الوصول الى هذه النتيجة الباهرة الاَّ بعد جهاد طويل ضحت في سبيلهِ بالمال جزافاً لان انتاجهُ كان يكلفها في بادىء الامر ما يربي على ثقله ذهباً لكنها لم تأخذ بالمال متجاوزةً عنهُ لنيل الفخر في

اصطناع النيلة والفضل في ذلك يعود الى الكيماوي الشهير ادولف فون باير الذي اشتغل لتحقيق هذا العمل العظيم منذ سنة ١٨٨٠ وبقي ملازماً تجاربهُ والبحث فيها الى ان تمَّ للباديشه اخراجهُ في سنة ١٨٩٧ ومن هذا التاريخ شعرت الهند خاصة بهزة في زراعتها للنيلة النباتية

ان للنيلة في نظرنا نحن المصريين ميزةً خاصة لانها معروفة هنا كثيراً اولاً لانها كانت من جملة حاصلاتنا الزراعية وثانياً لانها من المواد التي نحتاج اليها في رواج صناعة خاصة عندنا — فالنيلة تهمنا جداً ولا تستغربوا مني هذا القول اذا ذكرتكم بما لصاحب « الجلابية الزرقاء » من معنى فبهذا يمتون الفلاح المصري وهو مجموعنا لانها كساؤهُ الخاص وقد كانت ولا تزال تصبغ بالنيلة . والاشارة اليها تكفي للعلم بالمقادير الوافرة التي يستهلكها القطر المصري منها لصبغ الجلاليب الزرقاء ثم لما تشتغلهُ صباغتها من العدد العديد من الصباغين

اختار الفلاح المصري الجلابية الزرقاء لسببين جوهريين اولهما جمال اللون الازرق والثاني لموافقة هذا اللون لاقليم بلادنا الحار لان من طبيعة اللون الازرق تلطيف وقع الحر على الاجسام. وهنا يحق لي ان اذكر لكم نبذة تاريخية عن انتشار النيلة الاصطناعية في هذه البلاد وعن الدور الذي لعبتهُ في مصر لاني اظن في ذلك فائدتين الاولى تختص بتاريخ انتشارها وروَاجها والثانية تختص بتجارة النيلة النباتية في ذلك العهد وكيف كانت تباع

قدمت مصر في اواخر عام ١٨٩٨ وبعد التردد والبحث والتفكير انتهت الى المتاجرة بالنيلة النباتية اي الهندية لان هذه التجارة كانت رائجة لكثرة المصابغ التي كانت تحتاج اليها فكان ما يقطع منها يبلغ ثمنهُ نحو ٢٥٠٠٠٠٠ جنيه او اكثر وكان عدد المصابغ التي كانت تشتغل بها يزيد على خمسة وعشرين الف مصبغة متفرقة في جميع بنادر القطر ودساكره لانك قلما كنت تدخل بلداً ولا ترى فيها مصبغة او مصابغ وكانت جميعها لا تعرف من فن الصباغة الا صبغ اللون الازرق بالنيلة. ولكن هذا العدد العديد من الصباغين الذي كان يقارب من ثمانين الفاً الى مائة الف مع عمالهم كان في حيازة تجار النيلة النباتية يكدُّ لفائدتهم ويشتغل لغير بروتهم

ولماذا ؟ لان بضعة تجار اغنياء احتكروا استيراد النيلة من الهند في ذلك العهد وملكوا ناصية بيعها في البلاد المصرية فكانوا كالحاكمين بامرهم في اثمانها واني لاذكر لكم بعض المحلات التجارية التي كانت مشهورة في تصريفها في ذلك العهد

محل مرزا عبد الجواد . امين بك ابو زيد مرزا . محمد بك رفيع مشكي . عبد الكريم بك كازروني . الحاج اسماعيل بك . عبد العظيم ومحمود بك السوسي . الحاج اغا ابو زرق شيرازي رحمهم الله جميعاً

وطريقة اتجارهم بالنيلة النباتية اي الهندية كانت غريبة مكتتهم من احتكار الصباغين كما ذكرت وهي طريقة لا اعهد لها نظيراً في بلد غير مصر . اذ كانوا يعتمدون في بيع النيلة ديناً للصباغين وكان مقدار هذا الدين او الامداد يقل ويزيد حسب مقطوعية الصبّاغ السنوية من النيلة فكان مصابغ بر مصر في ذلك العهد ما كانت الا مستعمرات او ملكاً لاولئك التجار والمشتغلون بها ما كانوا الا صناعاً وعمالاً لهم

بين اولئك الملوك المحتكرين واولئك الصناع الارقاء المملوكين شرعت اتاجر بالنيلة النباتية وانا لا املك ثروة مثل ثرواتهم ولا خبرة ولا نفوذاً مثل خبرتهم ونفوذهم ثم لا دين لي على الصباغين لاتحكم به فيهم لكنني رأيت في تجارة النيلة رواجاً وفي بيعها ربحاً ثم عرفت بما استقرأته من تاريخ تجارها السالفين كالمرحوم عبدالله عواظ والباقين في ذلك الحين من جمع الثروات الطائلة فطفقت اشتري النيلة من التجار المذكورين ثم اخذت استورد رسالات صغيرة منها من الهند وسعيت الى تصريفها في الارياف اذ كنت اسافر بها الى كل بلد واعرض على الصباغين بضاعتي قانعاً ببيع المقدار القليل بالربح المزيد مغتنماً فرصة احتياج الواحد منهم الى النيلة سريعاً ومع هذا العزم والحزم نجحت بعض النجاح لا كله وتفاءلت خيراً في المستقبل

ظللت على هذه الحال الى سنة ١٩٠٠ توصلت فيها الى ايجاد مركز تجاري لي وبعض الشهرة الى ان حللت الاقصر ذات يوم وذهبت الى صباغ عميل كان لي هناك ابلغني ان زميلاً له بجوارهِ جرّب صنف نيلة جديدة ليست « بقجه » اي قطعاً كالمعهود في النيلة الهندية بل سائلة يدّعون انها من صنع الالمان وان تجربتها جاءت موجبة للدهشة والاستغراب اذ اعطت لوناً جميلاً وثابتاً مثل النيلة الهندية وهي ترخص عنها ثمناً يكاد يكون الثلث

سمعت هذا الخبر المشوم ولم اردْ تصديقهُ لما في تصديقهِ من الضربة القاضية على آمالي وعلى كل ما سعيت لهُ واسّستهُ بعد الجهد الجهيد في خلال السنتين الماضيتين لكنني تجلدت واردت تحقيق الامر بنفسي فذهبت مع صاحبي الى مصبغة زميله وهناك رأيتهم يصبغون بالنيلة المذكورة فاذا بها كما وصف مخبري وبعد ان استفسرت عن المقدار الذي استهلك في العمل وعنهِ تبينت الخطر المحدق وزدت اقتناعاً بهول

المستقبل فعراني القلق والهلع لانهُ سبق لي ان عرفت ما اصاب الفوة بعد ظهور الاليزارين وزدت خوفاً لما علمت ان المصنع واحد للصنفين فقلت في نفسي ان موت النيلة النباتية دنا وهو قريب

عدت من الاقصر ماراً في البلاد مستكشفاً اخبار النيلة الجديدة فلم اعثر على شيء مفيد سوى في اخميم حيث لقيت ما وجدتهُ في الاقصر من وصول مقادير قليلة من النيلة الاصطناعية الى بعض صباغيها وعلمت انها لقيت عندهم قبولاً ونجاحاً فزاد انشغال بالي وتشاءمي بالمصير

وصلت مصر القاهرة كئيباً ولكني لم اصارح احداً بما علمتهُ لما في افشائهِ من الضرر العاجل الى ان جاءني عصر يوم المرحوم اسماعيل بك عبد العظيم وسلمني — بيد ترتجف — عدداً من جريدة المقطم يحتوي على اعلان صادر من محل تجاري لم يذكر اسمهُ بل رمز اليهِ بحرفين يطلب معتمداً متجولاً وخبيراً يبيع النيلة في الارياف ومصر ثم طلب مني المرحوم اسماعيل ارسال كتاب الى العنوان المرموز اليهِ اعرض لهُ فيهِ استعدادي لقبول وظيفتهِ قصد معرفة هذا المزاحم الجديد الذي كان المرحوم اسماعيل بك يخشى ظهورهُ . ونظراً للعلاقات الودية التي كانت بيني وبين اسماعيل بك انفردت لامرهِ وكتبت كتاب الطلب حالاً فاخذهُ مني ووضع عليهِ الطابع ثم وضعهُ بيدهِ في صندوق البريد

حصل ما تقدم من المرحوم اسماعيل بك وكم ندم فيما بعد على ما فعل وذكرني بهذا الكتاب الذي كان يظنهُ سبباً في القضاء على تجارة النيلة النباتية فيما بعد

مضى على ارسال كتابي يوم او يومان اذ جاءني شيخ جليل علمت انهُ الحواجه هرمان كورتهوس صاحب محل كورتهوس وهرشتين الشهير في ذلك التاريخ فاطلعني على كتابي المذكور وسألني اذا كنت حقيقة راضياً الاستخدام عندهُ بالوظيفة المبين عنها في الاعلان الذي هو واضعهُ . ولما اجبتهُ بالايجاب رغبة مني في الوقوف على جلية الامر طلب مني الحضور الى مكتبهِ في صباح الغد للمباحثة في الموضوع فذهبت اليهِ في اليوم التالي وعلمت انهُ الوكيل لمصنع الباديشه انيلين وصودا فاريك في القطر المصري ثم فهمت ان وظيفتي ستكون نشر النيلة الاصطناعية من صنع هذا المعمل الكبير . ولما كنت على سابق علم بما صادفتهُ في الاقصر واخميم من حسن القبول لم اتردد لحظة في قبول الاتفاق معهُ لاني رأيت في الاتفاق ضماناً لمستقبلي

وقد تمت الكلمة بيننا وصرت بعدها المجاهد في سبيل رواج صنف سبق لي ان تأكدت نفعهُ

لا اظنكم ملتم من ذكر هذا التاريخ وهو يتعلق ببلدكم خاصة ولا اظنكم ترغبون في الوقوف عند هذا الحد ولا تعلمون كيفية نشر هذا الصنف الجديد بين العدد العديد من الصباغين المتفرقين في جميع بلاد القطر المصري وما كرهِ وما لقيتهُ في سبيل ذلك من الصعوبات ليس لان الصنف غير مفيد لكي لا يكون لهُ حكم النشوء والارتقاء بل من مزاحمة ملوك النيلة الهندية في ذلك العهد ومقاومتهم عالمهم من نفوذ وسلطان على عقول الصباغين السذج البسطاء وجيوبهم

ادرك تجار النيلة الهندية مثلي شدة وقع الضربة على تجارتهم وان الامر لا يقتصر على فقدانهم تجارة رائجة بل خافوا ضياع ما لهم من ديون وافرة فاشاعوا عن النيلة الاصطناعية في طول البلاد وعرضها الاشاعات الكاذبة من ان استعمالها يعري الايدي ويعمي العيون وان لونها ليس بالثابت بل انهُ متغير وان مادتها مركبة من مواد مضرة بل خاسة كما انها لا تتفق مع مصلحة المستهلكين انفسهم لان سعرها واحد للجميع ولونها النيلي واحد مما يفضح من اسرار صنعهم ويفتح باباً واسعاً للمزاحمة بينهم لا يبقي فائدة لصباغ. ثم انذروا عملاءهم جميعاً بوجوب سداد ما لهم في ذممهم من الديون في حالة اخذهم او استعمالهم النيلة الاصطناعية والا فهم لا يتأخرون عن مطالبتهم بسدادها واخذ الاجراءات القانونية ضدهم ليس امام المحاكم الاهلية بل المختلطة. اراد وا بهذا التهديد التأثير والتشديد عليهم ليكفوا عن النيلة الاصطناعية وليقتلوا الطفل وهو جنين. فكنت اذا ذهبت الى صباغ لا اجد منهُ الا وجهاً عابساً مقطب الحاجبين ولسان حالهِ يقول لي اخرج من الباب الذي دخلت منهُ وقد شرك واذا حاولت الحديث معهُ في الصنف كنت كمن يحاول اخراجهُ عن عقيدتهِ الدينية

اردت تلافي الامر باختياري اهون الشرين فذهبت لمقابلة المرحوم امين بك ابي زيد لاعرض عليهِ احتكار النيلة الاصطناعية فكان جوابهُ لي قبل الرد على السلام بالطرد. خرجت من عندهُ الى محمود بك السوسي فرأى الغضا مشيراً بالخروج. قابلت الحاج اسماعيل بك عبد العظيم فنصحني ان لا اكون اداة الخراب لان الله لا يحب المضرين. أحسست بالمرحوم عبد الكريم بك كازروني فتلقاني رحمة الله عليهِ بوداعتهِ المعهودة واظهر لي عدم احتمال اشتغالهِ بالصنف المذكور لما في ذلك من الضرر على علائقهِ بالهند

ضاقت بي الحيل وكاد اليأس يساورني الى ان فتح الله عليّ بترك تجار النيلة وعملائهم الصباغين المدينين لهم والذين تحت لواء عبوديتهم وان اجتهد ببيع نيلتنا الاصطناعية لكل صباغ معدم في كل بلدة لعدم اتيان تجار النيلة لهُ فهو حر طليق من عبوديتهم وغني بنفسه عن تأثيرهم وان انال من تحسين حالته وترويج مصبغته اعلاناً ناطقاً بما للنيلة الاصطناعية من التفوق . فعمدت الى هذه الطريقة وجازفت بمئات البرّاميل من النيلة وكان في ذلك النجاح الباهر لما كسبهُ ذلك الصباغ المعدم من استعمالها من شهرة ومال افسكان القدوة الحسنة لزملائه ولم يطل علينا المطال كثيراً حتى اشتهرت النيلة الاصطناعية ولم تمض سنتان حتى بلغت الواردات منها على بصر ١٥١٨٣٤ كيلو غراماً في سنة ١٩٠٢ مقابل ٧٢٨٠١٥ كيلو من النيلة الهندية ثم بلغت واردات النيلة الاصطناعية في سنة ١٩١٣ نحو ٥٠٢٩٤٩ كيلو مقابل ٧١١١٢ كيلو من النيلة الهندية . ولولم تقم تلك الحرب الشعواء وتمنع الواردات من النيلة الاصطناعية في السنين الخمس من الحرب الضروس لماتت النيلة الهندية وقضي على استعمالها في مصر وصارت في عداد الآثار

وهنا اسمحوا لي ان اذكر لمدرستكم ما اعدهُ ايضاً من موجبات الفضل في تخريجها الناشئة على حب العمل والميل للاشغال الحرة لان قسطاً وافراً من فضلها هذا عاد ايضاً على رواج النيلة الاصطناعية اخيراً في هذا القطر فاذا كان سبق لي وذكرت ما لقيتهُ عند البدء في ترويج هذا الصنف في هذا القطر من معاكسة تجار النيلة النباتية من عددت لكم اسماؤهم فيسرني ان اعلن على رؤوس الاشهاد اليوم ان من اشدهم وهم من متخرجي مدرستكم العامرة من اخذ يبيع اصناف النيلة الاصطناعية ويزيد بها على المزاحمين وصار من اكبر مشتريها واعظم بايعيها الآ وهو وصيفكم الحاضر بينكم الآن حضرة عبد الحميد بك كازروني فانهُ ورث عن المرحوم والده تلك الخلال العالية من امانة واستقامة ثم طول باع في التجارة وهو اليوم يدير محل والده بواسع تجاراته ومن جملتها النيلة الصناعية . واني اذا ذكرتهُ بالفخر فلاجعلهُ مثالاً لكل واحد منكم تقتدون بهِ فتعمدون الى الصناعة والتجارة وتتبذون من نفوسكم تلك الروح التي سادت كثيراً في هذا القطر بان يكون المتعلم وقفاً على خدمة الحكومة ولا يرى وجهة لهُ سواها اقتدوا بزميلكم هذا وبغيره ووضعوا امام عيونكم السير في الاشغال الحرة

ثابت ثابت